العودة المتخيلة ـ ضفاف المستقبل

محمود شقير*

عن العودة وحلم العودة

أيها الشهداء قد كنتم على حق، لأن البيت أجمل من طريق البيت
محمود درويش
(من قصيدة "مأساة النرجس، ملهاة الفضة")

I

في زمن اشتداد المؤامرة على القضية الفلسطينية ومحاولات تصفيتها، يبدو تخيل حلم العودة أمراً لا يخلو من صعوبات.

يمكن تقديم تصور نظري لحقّ العودة؛ أمّا تخيل هذا الحق في إطار الممارسة وما يرافقها من مشاعر وانفعالات، ومن تفصيلات وردات أفعال، فأمر يحتاج إلى ظروف سياسية مواتية، وإلى مخيلة خصبة كي ترى بالملموس كيف يمكن للفلسطينيين ـ الذين شردتهم الغزوة الصهيونية من مدنهم وقراهم، وعاشوا أعواماً طويلة في مخيمات اللجوء والشتات، وتعرضوا لمختلف صنوف المعاناة ـ أن يعودوا إلى أماكن الطفولة والصبا، وأن يجربوا المفاتيح التي لطالما احتفظوا بها لليوم الموعود، في زرافيل البيوت التي احتلها الغزاة وسكنوها، أو أن يتأسوا على بيوت كانت لهم فأُخرجوا منها عنوة، ثم طالها النسف والتدمير والخراب.

لمقاربة هذه العودة المتخيلة، ولتجسيد الحلم الذي لم يغادر مخيلات الفلسطينيين من مختلف الأجيال، سأتذكر عوداتي المتعددة إلى البيت، وإلى مدينة القدس بعد غياب متكرر لم يكن لي فيه يد، بل كان المحتلون الإسرائيليون هم الذين يفرضونه عليّ.

II

في تموز/يوليو ١٩٤٨ بعد احتلال الجزء الأكبر من فلسطين، جربت أول ابتعاد قسري عن البيت الذي لم يخطر في بالي من قبل أنني سأبتعد عنه. كنت آنذاك في

* روائي فلسطيني.

السابعة من العمر، وكان ثمة عدوان مسلح على جبل المكبّر.

ولم نعد أنا وأهلي إلى بيتنا إلاّ بعد أشهر حين أُعلنت الهدنة وتم ترسيم الحدود، وتأسست للمحتلين الإسرائيليين دولة، وأصبحت قريتنا واحدة من قرى الحدود.

شعرت بفرح غامر حين عدت إلى مكاني الأول، وإلى البيت الذي كان يحميني من المخاطر ويهبني الدفء والحنان؛ غير أن خوفاً فادحاً ممّا تعرضنا له في تلك الليلة المشؤومة تسلل إلى صدري وظل كامناً هناك أعواماً؛ وربما حتى الآن.

***

وفي الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧ انبعث الخوف الكامن في صدري من جديد، بعد أمل لم يدم سوى ساعات بأن تحرير فلسطين حان. كانت الحرب هذه المرة أكثر حسماً ممّا سبق؛ ثمة طائرات معادية تقتحم سماءنا، وثمة قنابل مفزعة تنفجر على نحو متلاحق فوق رأس الجبل. عدت من مركز المدينة إلى البيت، وكنت أعتقد أننا لن نغادره مثلما فعلنا قبل تسعة عشر عاماً؛ لكن اشتداد القصف أجبرنا على تكرار ما فعلناه من قبل. لجأنا إلى بيوت أقارب لنا بعيدة نوعاً ما عن منطقة الخطر. بقينا هناك ثلاثة أسابيع أو أكثر قليلا؛ كانت تلك الأسابيع كأنها دهر بأكمله. وعلى الرغم من أن الحرب المهزلة انتهت خلال ستة أيام، إلاّ إننا لم نعد إلى بيوتنا فور انتهاء الحرب.

ثم جازفنا وعدنا، ونحن نعلن استسلامنا لمشيئة الأعداء؛ كان رجل مسنّ من أقاربي يتقدمنا وهو يرفع عالياً راية بيضاء. كانت الرغبة في العودة إلى بيوتنا تملأ علينا مشاعرنا.

وآنذاك، أصبحت فلسطين كلها تحت هيمنة المحتلين الإسرائيليين، وأصبح البيت الذي ولدت فيه واقعاً تحت الاحتلال، وكم كنت مشفقاً على هذا البيت الذي كنا نتركه ليواجه مصيره وحده ثم نعود إليه، فيغفر لنا تخلّينا عنه في أوقات الشدة، ثم نواصل العيش معاً في ألفة لا تنقص بل تزيد وتترسخ على مدى الزمان!

III

بعد هزيمة حزيران/يونيو، كانت لي عودات موقتة، أو زيارات خاطفة إلى الجزء الغربي من القدس، وإلى شفا عمرو والناصرة وحيفا ويافا وعكا وباقة الغربية ومجد الكروم وسخنين وغيرها من مدن فلسطين وقراها المحتلة منذ سنة ١٩٤٨. كانت عودات أو زيارات نابعة من فضول مشروع، فالوطن السليب الذي كثيراً ما تغنّينا بمدنه الجميلة في المدارس والجامعات، وفي النوادي والمنتديات أصبح متاحاً الآن، وإن على نحو منقوص ومثير للمرارة في النفوس، بل إننا نحن الفلسطينيين الذين عادوا موقتاً تحت جنح الهزيمة، كنا نمارس نوعاً من العقوبة على أنفسنا وعلى مشاعرنا حين نرى مدناً لا نملك فرصة للبقاء فيها إلاّ بإذن المحتلين، ومن خلال إجراءاتهم المفروضة علينا شئنا أم أبينا.

رحت أتذكر على نحو غامض تلك الأماكن في الجزء الغربي من القدس التي زرتها مع أبي حين كنت طفلاً. بحثت عن "القهوة المعلقة" التي كان أبي يرتقي دَرَجها وأنا معه، لنجلس هناك وقتاً، ثم نمضي عبر باب الخليل إلى القدس القديمة. لم أجد "القهوة المعلقة"، ربما دمرتها القنابل التي كان يطلقها جنود الجيش الأردني من خلف السور نحو مواقع الغزاة، أو ربما دمرتها قنابل الغزاة.

تجولت مع نفر من الأصدقاء في شوارع الجزء الغربي من القدس، وكنا مبهورين بأمكنة جميلة فقدناها في إثر نكبة ١٩٤٨. كانت عودة موقتة ومؤلمة في تلك الأيام المريرة التي أعقبت هزيمة ١٩٦٧.

وسأذهب بعد أعوام من الهزيمة مع فريق تصوير تلفزيوني إلى بيت خليل السكاكيني في حيّ القطمون في الجزء الغربي من القدس. شاهدنا البيت من الخارج. كانت له مهابته التي استمدها من رسوخ بنيانه ومن شهرة صاحبه المفكر التربوي واللغوي الأديب. وكان في الطبقة الأرضية من البيت رجل عجوز من يهود العراق وزوجته المسنّة. طلبنا منهما أن يسمحا لنا بدخول البيت؛ وافقا بعد تمنّع وتردد. دخلنا البيت والتقطنا صوراً لجدرانه ثم تكلمت أمام الكاميرا عن صاحب البيت وعن مآثره الكثيرة، ثم كيف مات في الغربة وهو غير قادر على العودة إلى بيته الذي بناه بتعب العمر، وكيف لم يعد ابنه وابنتاه قادرَين على العودة إلى هذا البيت.

حاولنا دخول الطبقة العليا التي أصبحت روضة للأطفال، فلم تسمح لنا المرأة المسؤولة عن تلك الطبقة بالدخول.

***

في سنة ١٩٦٨ ـ بعد عام من الهزيمة ـ زرنا أنا وزميلان آخران بلدة شفا عمرو الواقعة في شمال فلسطين. انبهرنا بوجود فلسطينيين يحيون حياتهم بتصميم وثبات هناك، وعرفنا كم كابد هؤلاء الفلسطينيون كي يبقوا في وطنهم في أثناء النكبة المأساة وبعدها! وكم تعرضوا لأذى ولاحتمالات القتل وسفك دمائهم! لكنهم احتملوا الأذى ولم يغادروا بيوتهم. حللنا ضيوفاً على عائلة الصديق الصحافي إلياس نصر الله، وتعرّفنا في أثناء تلك الزيارة إلى أصدقاء جدد. كان مجرد بقائهم في وطنهم يملأ نفوسنا بالأمل.

زرنا الناصرة التي ظلت، على الرغم من القهر والعسف والغزو المسلح، مدينة عامرة بأهلها الفلسطينيين. شعرنا كما لو أننا في الجزء الشرقي من القدس أو في رام الله أو نابلس أو بيت لحم أو الخليل. ثمة رجال فلسطينيون ونساء فلسطينيات يملأون الأسواق؛ وثمة بيع وشراء ومكتبات وكتب وجمعيات ثقافية ومنتديات.

هناك، التقينا في المكتبة الشعبية، بالمصادفة المحضة، ممثل الحزب الشيوعي في الكنيست، الصحافي والروائي إميل حبيبي، وكان لنا معه حوار.

كان في نفوسنا مرارة وحزن وأسى، وكان في الوقت نفسه ثمة أمل؛ هنا شعب حيّ لا يموت.

زرنا حيفا في المساء. كم كانت جميلة تلك المدينة التي سأتردد عليها عدداً غير قليل من المرات! مشينا على الأرصفة المكتظة بنساء ورجال يهود جاؤوا إلى المدينة مع موجات الهجرة عبر البحر وسكنوا المدينة؛ تأملنا الشوارع التي تتزاحم فيها السيارات؛ تأملنا جبل الكرمل الصاعد نحو السماء بالبيوت المتراكمة فيه، والتي تركها الآلاف من أهل المدينة خلفهم تحت قصف القنابل ودوي الرصاص، عدا قلة غامرت بحياتها وبقيت في المدينة.

هناك في الصباح، بحثنا عن محمود درويش وسميح القاسم اللذين كانا يعملان في صحيفة "الاتحاد"، ولسوء الحظ لم نجدهما بسبب عطلة كانت في ذلك النهار.

وسأزورها بعد ذلك عدة مرات ـ في كل زيارة كان يتلبّسني شعور بالفقد والخسران ـ وسأتوقف ذات مرة عند قبر إميل حبيبي الذي مات في الناصرة ودُفن في حيفا، وكُتبت على شاهدة قبره تنفيذاً لوصيته، جملة تلخص تجربته وتجربة مَن بقوا في وطنهم من الفلسطينيين: باقٍ في حيفا.

وسأزورها لتقديم كلمة في احتفال تسمية ميدان في المدينة باسم إميل حبيبي، تكريماً له، واعترافاً من بلدية حيفا به بصفته رمزاً ثقافياً وأدبياً كان له فضل على المدينة التي أحبها وكتب عنها، وكان لها فضل عليه حين احتضنته ولم يفارقها.

وكان في ذلك التكريم إشارة إلى أن ثمة صهيونيين معتدلين يعترفون للفلسطيني ببعض حقوقه في وطنه؛ إنما السؤال: هل هم على استعداد للاعتراف بالنكبة التي حلّت بالشعب الفلسطيني؟ وهل يعترفون بتاريخ حيفا من دون مواربة أو اجتزاء؟!

بتاريخ ٢٦ أيار/مايو ٢٠١٣ قلت في الاحتفال: إن حضور إميل حبيبي في حيفا الذي فرضه بجهوده في حقلَي الأدب والسياسة، من شأنه أن يبعث إلى حيز التداول على جميع الصعد تفصيلات الذاكرة الغنية لهذه المدينة التي كانت قبل النكبة الفلسطينية مركزاً حضارياً متقدماً للثقافة والفن، وللصحافة والسياحة، وللتجارة والاقتصاد، ولغير ذلك من المظاهر المدنية التي جعلت منها آنذاك عروساً لبحرها، وقبلة لأنظار أفراد لا حصر لهم وشعوب. هذه الذاكرة الخصبة لا يجوز أن يجري تغييبها، وهذا التاريخ النيّر لا يمكن أن يهال عليه غبار النسيان.

وكنت بعد كل زيارة لحيفا أعود إلى بيتي في القدس؛ وتظل حيفا حاضرة في البال.

***

وبعد هزيمة حزيران/يونيو بعامين؛ سأكون قريباً من حيفا؛ بعيداً منها في الوقت نفسه.

ففي ليلة من ليالي صيف سنة ١٩٦٩ طوّق الجنود الإسرائيليون بيتنا، وكان معهم أحد ضباط الاستخبارات. اعتقلوني واقتادوني إلى سجن المسكوبية في الجزء الغربي من القدس، ثم اقتادوني إلى سجن صرفند العسكري، ثم إلى سجن الرملة، وإلى سجن الدامون الواقع على مقربة من حيفا. أمضيت في الزنزانات وفي غرف السجون عشرة أشهر. كان الحنين إلى البيت وإلى دفء البيت وناس البيت يدهمني في كل وقت؛ وحين وقفت صباح ١٩٧٠/٥/٧ خارج

بوابة السجن؛ كان البيت هو الهدف الذي أتمنى لو أنني أصل إليه في لمح البصر.

بعد ثلاث ساعات من السفر في السيارة، عدت إلى البيت؛ كم كنت مبتهجاً لأنني عدت! وكم تأسّيت على زملاء لي بقوا في السجون الإسرائيلية أعواماً طويلة وهم محرومون من متعة العودة إلى البيت!

***

وبعد هزيمة حزيران/يونيو بستة أعوام أُجبرت على مغادرة البيت.

ففي ليلة من ليالي خريف سنة ١٩٧٣ طوّق الجنود الإسرائيليون بيتنا، وبالمصادفة لم أكن في البيت. كانت حرب تشرين الأول/أكتوبر تدق أبواب المحتلين وتبشّر بأمل ما. اختفيت طوال أسابيع في بيوت سرّية في نابلس وفي رام الله؛ ولم أعد إلى البيت إلاّ بعد أسابيع من انتهاء الحرب.

أقلّتني سيارة أجرة ذات مساء من رام الله إلى جبل المكبّر، فوصلته بعد المساء، ولم أشأ أن أجعل السيارة تهبط إلى آخر الشارع كي لا ألفت انتباه أحد (كانت السيارات التي تصل إلى الجبل شحيحة آنذاك). هبطت من قمة الجبل مسرعاً، انعطفت نحو الشارع المؤدي إلى "بير المشمشة"، سرت فيه مسافة قليلة، ثم صعدت نحو الحجاب الصخري المتاخم لأرضنا التي نسميها "السوط".

كان البيت يربض على مرتفع من الأرض في الظلمة، شعرت بشوق غامر نحوه وأنا أقترب منه. إنه وطني الأصغر الذي شهد جميع التقلبات التي عشتها وعاشتها العائلة. كان يحنو عليّ كلما عدت إليه حزيناً مجرّحاً من قسوة الزمان، وكان يشاركني فرحي كلما أصبت نجاحاً؛ من عتبته خرجت أخواتي الخمس إلى بيوت أزواجهن، ومن عتبته خرجت أختي أمينة إلى برودة القبر بعد أن أودى بها زواجها الذي لم يدم سوى عام واحد.

ولم يعد بيني وبين البيت سوى بضع خطوات.

(أخبرتني الصحافية الأميركية ج. ماندیل أنها بكت وهي تقترب منه ذات ظهيرة. جاءت من بلادها سائحة، ثم استقرت في القدس وعملت عدة أعوام في ملحق صحيفة "الفجر" باللغة الإنجليزية، وكان لها مواقف سياسية مؤيدة للشعب الفلسطيني، تدلل عليها كتاباتها وحساسيتها المفرطة التي تجعل الدموع تطفر من عينيها لدى تعرضها لأقل انفعال. جاءت إلى عمّان مرة، فتعرفت إليها، ثم أخذت تتعاطف مع قضيتي الشخصية باعتباري مبعداً من وطني. اقترحتْ ذات مرة على صديقة لها من القدس، أن تصحبها إلى جبل المكبّر لرؤية البيت الذي عشت فيه. اقتربتا من البيت، ولم تستطع ج. ماندیل الاقتراب أكثر، فابتعدت، وابتعدت معها صديقتها.

قالت لي: شعرت بأن البيت ناقص، لأن ثمة غياباً موحشاً يعتريه، وقالت أنها لم تحتمل الموقف، فآثرت أن تبتعد عن البيت).

وها أنذا أقترب من البيت. ارتبك أبي وارتبكت أمي وزوجتي، واعترتهم الدهشة حين رأوني،

إذ لم يكونوا يعرفون شيئاً عن مكان إقامتي طوال الأسابيع الماضية. أصابهم فرح مشوب بالقلق، وراحوا يتلفتون بخشية عبر باب البيت، نحو الظلمة التي تتكاثف في الخارج. كانت أمي هي أكثر أفراد الأسرة حذراً، أذناها تصغيان لكل نأمة في الخارج، فهي تخشى أن يباغتني الجنود وأنا أحتضن أطفالي الصغار، فيلقوا القبض علي.

***

ولم يطل الوقت حتى ألقوا القبض عليّ بعد شهرين من ذلك المساء؛ ثم كان الغياب الطويل عن البيت وعن المدينة وعن الوطن.

الغياب الذي دام ثمانية عشر عاماً؛ منذ سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٩٣.

جاء رجال الأمن الإسرائيليون هذه المرة في صباح يوم ١٩/٤/١٩٧٤، وكنت أقف على رصيف الشارع في جبل المكبّر في انتظار الحافلة التي ستقلّني إلى مركز المدينة. ألقوا القبض عليّ قبل أن أصعد إلى الحافلة، واقتادوني إلى سجن المسكوبية ثم إلى سجن رام الله، ثم إلى سجن الجَلَمة، ثم إلى سجن بيت ليد القريب من طولكرم، وبعد عشرة أشهر من الاعتقال الإداري بتهمة القيام بأنشطة تحريضية ضد الاحتلال، أُبعدت إلى الحدود اللبنانية ومعي أربعة رفاق آخرون.

عشت في بيروت أقل من عام، وفي براغ ثلاثة أعوام، وفي عمّان أربعة عشر عاماً.

كان الحنين إلى المكان الأول الذي ولدت وعشت طفولتي وشبابي فيه، يجعلني غير قادر على مدّ جذوري في الأمكنة التي عشت فيها بعيداً عن ذلك المكان، على الرغم من حبي لتلك الأمكنة، ومن أنها لم تقصّر معي بأي حال.

وكانت فرحتي الكبرى حين جاءني خبر العودة إلى الوطن. كان اتفاق أوسلو يُطبخ بالسرّ آنذاك. كنا ثلاثين مبعداً من القدس ومن مدن فلسطينية أُخرى، اتفق يتسحاق رابين مع منظمة التحرير الفلسطينية على عودتنا إلى وطننا بعد أعوام طويلة من النفي والتشريد.

عدت بتاريخ ٣٠/٤/١٩٩٣، وكم كانت فرحتي غامرة وأنا أعود إلى بيتي من جديد، وكم كنت مسروراً وأنا أذهب بعد أسبوع واحد من العودة إلى الأمكنة التي كثيراً ما تمشيت وجلست فيها؛ في القدس وفي رام الله وبيت لحم وأريحا وغيرها. تفقدت المقاهي والمطاعم التي كنت أتردد عليها، وكذلك البيوت التي سكنتها في رام الله وفي بيت حنينا. وكنت مسكوناً بالأمل وأنا أرى جيلاً جديداً من الشباب الذين صقلتهم انتفاضة الحجارة التي كانت تجتاز آخر مراحلها تلك السنة.

غير أن تلك العودة كانت ناقصة، لأن القدس ما زالت عرضة للتهويد، والوطن الفلسطيني ما زال مكبلاً بالقيود.

آنذاك، نشرت كتابي الموسوم بـ "ظل آخر للمدينة"، والذي ولدت فكرته من اقتراح لمحمود درويش بأن أكتب نصاً عن القدس لينشره في مجلة "الكرمل" تحت باب: "ذاكرة المكان.. مكان الذاكرة". كتبت النص ونشره محمود، مثلما نشر نصوصاً لعدد من الكتّاب عن مدن فلسطينية

أُخرى، وقد صنّف بعض النقاد هذه النصوص على أنها جنس أدبي يمكن أن يُطلق عليه: "أدب العودة".

IV

ولعل توْق الفلسطينيين إلى العودة، جيلاً بعد جيل، هو الذي جعلهم يبتكرون بروفات لهذه العودة التي ظلت هدفاً ماثلاً في الوعي وفي الوجدان وفي الضمير.

وقد تبدّى ذلك في بنائهم قرية باب الشمس مذكّرين برواية إلياس خوري التي تحمل الاسم نفسه؛ مصرّين في الوقت نفسه على بعث القرية الفلسطينية والإقامة فيها من جديد. وتلا ذلك محاولات لبناء قرى أُخرى كان المحتلون يسارعون إلى محوها من الوجود، مثلما فعلوا بقرى فلسطينية كثيرة في سنة ١٩٤٨.

وتبدّى ذلك في مسيرات العودة التي قامت وتقوم بها جماهير فلسطينية إلى حيث كانت قرى: عتليت، وميعار، وإقرث، وكفر برعم، واللجون، والحدثة، والكابري، ولفتا، إلخ.

تبدّى ذلك أيضاً في مسيرات العودة التي انطلقت في سنة ٢٠١١ في الذكرى الثالثة والستين للنكبة، وفي الذكرى الرابعة والأربعين لهزيمة حزيران/يونيو، واتجهت نحو الحدود في الجنوب اللبناني وهضبة الجولان وفي مختلف مدن فلسطين وقراها، وكذلك في بعض مدن الوطن العربي والعالم، متأثرة على نحو ما بانتفاضات الربيع العربي، ومتبنّية عدة شعارات، بينها شعار: الشعب يريد العودة إلى فلسطين، تماهياً مع شعار الانتفاضات الذي تردد في غير عاصمة عربية: الشعب يريد إسقاط النظام.

وتبدّى هذا التوق وهذ الإصرار على حقّ العودة في المسيرات التي قامت بها جماهير الشعب الفلسطيني في الذكرى السبعين للنكبة، في مختلف المدن الفلسطينية، وخصوصاً في قطاع غزة حيث سقط آلاف الجرحى والشهداء قرب السياج الفاصل الذي حاولوا اجتيازه لممارسة حقهم في العودة إلى وطنهم.

V

والسؤال الذي تتلوه أسئلة: كيف يمكن تخيل العودة بعد سبعين عاماً طويلة ومضنية من التهجير والتشريد، ومن تقديم آلاف الشهداء ومئات آلاف الجرحى والمعتقلين؟ كيف يمكن تخيل هذه العودة إلى المدن والقرى التي كانت عامرة بأهلها؟ وكيف يمكن هجر المخيمات التي أنشئت للاجئين الفلسطينيين جرّاء نكبة ١٩٤٨، وللنازحين جرّاء هزيمة ١٩٦٧، والعودة إلى المكان الأول حيث البيوت الأولى وحيث الذكريات؟ كيف نحمي الجزء الشرقي من القدس من هجمة الأسرلة والتهويد؟ وكيف نحافظ على وجودنا العربي الفلسطيني الإسلامي المسيحي في المدينة؟ وكيف يتحقق العدل بإعادة بيت السكاكيني في الجزء الغربي من القدس وآلاف البيوت الأُخرى إلى أهلها الفلسطينيين؟

كيف يمكن ذلك في هذا الزمن الذي تتصاعد نزعات التطرف لدى اليمين الصهيوني الحاكم

في إسرائيل، ولدى الإدارة الأميركية بقيادة ترامب الذي قدم القدس هدية لحكام إسرائيل؟

ذلك في اعتقادي، يحتاج إلى مخيلة خصبة، وإلى قدرة على اختراق ضباب الواقع والذهاب إلى مستقبل لا يمكن للظلم فيه أن يدوم، ولا يمكن لتجاهل الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني في وطنه أن يستمر. وفي الوقت نفسه، لا بد من التعويل على اقتناع الرأي العام العالمي بعدالة القضية الفلسطينية، وبضرورة عدم الاكتفاء بالتعاطف اللفظي مع الفلسطينيين، وإنما تجاوزه إلى أفعال ملموسة، وبضرورة إحكام طوق العزلة على النظام العنصري الإسرائيلي، ومحاصرته مثلما وقع للنظام العنصري في جنوب أفريقيا. ولا بد من فضح الرواية الصهيونية التي قامت على تزوير التاريخ وقلب الحقائق وابتداع أوهام لا تصمد أمام العقل والمنطق، للقيام بأبشع غزو استعماري استيطاني كان من نتائجه تدمير مئات القرى الفلسطينية، وتنظيم عشرات المذابح ضد الفلسطينيين، وتشريد مئات الآلاف منهم من وطنهم؛ وما زال هذا الغزو مستمراً حتى اليوم، لاستكمال تهويد مزيد من الأرض الفلسطينية، وحشر المواطنين الفلسطينيين في القدس وفي الضفة الغربية وقطاع غزة في معازل محاصرة وعرضة دوماً للعسف وللهوان.

ذلك يحتاج إلى تعديل في موازين الصراع يبدأ بأن ننهي نحن الفلسطينيين انقسامنا على أنفسنا، ونجدد أساليب نضالنا ونطور خطابنا السياسي للخروج من حالة الترهل وما يرافقها من استغلال للسلطة واستحواذ على الامتيازات وممارسة للفساد، والحفاظ على مشروعنا الوطني وصيانته من خطر الانهيار؛ وبألاّ يمعن بعض الدول العربية في تطبيع علاقاته مع حكام إسرائيل قبل دحر الاحتلال عن الأرض العربية والفلسطينية؛ وبأن يتغير الوطن العربي من حولنا، أو بعض أقطاره على الأقل، بما يساهم في إسناد الفلسطينيين على مجابهة الاحتلال؛ وبأن يتوقف العالم أو بعض دوله المتنفذة، وخصوصاً الولايات المتحدة الأميركية ـ بفعل الضغوط الشعبية والرسمية وأساليب النضال الملائمة ـ عن الكيل بمكيالين، وعن التحيّز السافر إلى المحتلين الإسرائيليين؛ وبأن يزداد تأثير القوى الديمقراطية في الشارع الإسرائيلي، لجهة الاعتراف بالحقوق الوطنية الفلسطينية في فلسطين.

ذلك يعني احتمال التوصل إلى تسوية سياسية ما زالت بعيدة بسبب تعقيدات الوضع الراهن؛ تسوية تسفر عن دولة فلسطينية مستقلة على جزء من أرض فلسطين، وهي للأسف الشديد غير مرئية في المدى القريب والمتوسط، الأمر الذي يشير إلى استمرار الخطر المتمثل في محاولات تصفية حقوق الشعب الفلسطيني في وطنه من خلال صفقة القرن الأميركية، أو استمرار الوضع الراهن الذي تهيمن فيه دولة الاحتلال الإسرائيلي على أرض فلسطين كلها حيث نشهد، كما هو متجسد الآن، وجوداً فعلياً لدولة واحدة بنظامَين، أحدهما موجه ضد الفلسطينيين الذين تمارس عليهم دولة الاحتلال مختلف صنوف التمييز العنصري والقمع والإذلال، والثاني لليهود.

والسؤال: هل يمكن تكرار تجربة جنوب أفريقيا وتطبيقها على الحالة الفلسطينية بأن يصبح الفلسطينيون مع الزمن أكثرية تحكمها أقلية، ثم يجري مع الزمن تعديل الظلم

التاريخي الذي لحق بالشعب الفلسطيني من خلال دحر الفكرة الصهيونية وتجلياتها الفعلية، والوصول إلى دولة ديمقراطية واحدة على أرض فلسطين التاريخية؟ ربما، فهذا الظلم لا يمكن أن يستمر، وهذا العدوان لا يمكن أن يحقق أهدافه على المدى الطويل، فالمشروع الصهيوني يحمل في طياته بذور تناقضاته ومخالفته لحقائق التاريخ والجغرافيا، وللشرائع الدولية ومبادئ العدالة الإنسانية وحقوق الإنسان كافة.

VI

الآن، بعد الغياب المتكرر الذي كان يُفرض عليّ، ثم العودة إلى البيت وإلى المكان الأول، فإنني أدرك أهمية عودة الفلسطينيين إلى وطنهم بعد أعوام طويلة من التهجير القسري والتشريد، وأدرك مقدار الهزة الشعورية التي ترافق ذلك. أدرك مدى الانعطافة التي يحدثها فعل العودة في الوجدان وفي الضمير وفي أسلوب الحياة، عبر التلاحم مع تفصيلات المكان: مع البيت وباب البيت وحيطانه وشرفته وشبابيكه؛ مع الحديقة التي حول البيت وما فيها من ورود وأزهار وأشجار؛ مع الحقل والبيّارة؛ مع الزرع ومع البيدر؛ مع المصنع والمكتب ومقرّ الصحيفة ودار السينما والشارع والميدان؛ مع هواء المكان وسمائه؛ مع صيفه المعتدل وخريفه الهادىء وشتائه غير الصاخب وربيعه الفتّان. تلك التفصيلات الحميمة التي تمد الإنسان بالقدرة على البقاء وعلى مواصلة الحياة باقتدار.

وحين أدرك ما يحيط بي وبأهلي وبأبناء مدينتي ـ مسلمين ومسيحيين ـ من مخاطر التهجير المباشر أو غير المباشر، فإن تحرير القدس من الاحتلال يجعلني أكثر اطمئناناً على استمرار حياتي في المدينة، على النحو الذي يحفظ لي كرامتي ويحميني من التعرض للسجن أو للنفي كما وقع لي من قبل.

آنذاك، سأشعر بطمأنينة مؤكدة، وسأجد وقتاً للتأمل، وآخر للعزلة ولممارسة الكتابة؛ سأجوب أطراف المدينة ومركزها من دون خوف أو قلق، وسأرتاد مسارحها ودور السينما والمنتديات الثقافية فيها التي ستتكاثر بفعل الحرية والازدهار والأمن والاستقرار، وبفعل انبعاث الحداثة والعصرنة فيها من جديد.

***

وإلى أن يحين ذلك الوقت المأمول ويصبح الحلم حقيقة، فإنني سأواصل الابتهاج كلما عدت إلى قصيدة "مأساة النرجس، ملهاة الفضة" التي كتبها محمود درويش بوحي من الانتفاضة الأولى التي بشرت بأمل ما للخلاص.

أبتهج حين أرى الفلسطينيين وقد:

عادوا
من آخر النفَق الطويل إلى مراياهم.. وعادوا
حين استعادوا مِلْحَ إخوتهمْ، فرادى أو جماعاتٍ، وعادوا
من أساطيرِ الدفاع عن القلاع إلى البسيط من الكلامْ

أو حين:

عادوا ليحتفلوا بماء وجودهم؛ ويرتّبوا هذا الهواءْ
ويزوّجوا أبناءهم لبناتهم، ويرقّصوا جسداً توارى في الرخامْ
ويُعَلّقوا بسُقُوفهم بَصَلاً، وبامية، وثوماً للشتاءْ
وليحلبوا أثداء مَاعِزِهم، وغيماً سالَ من ريش الحمامْ.

... إلى آخر القصيدة الملحمة التي تدلل على شعب مسالم طامح إلى الحرية والحياة السوية العادية؛ مملوء بالأمل وحبّ الحياة. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تاريخ الفلسطينيين وحركتهم الوطنية

ماهر الشريف (مؤلف رئيسي)

عصام نصار (مؤلف مشارك)